

الفحم الحجري والصلب في والونيا، وبشكل عام للمساعدة في إعادة إعمار مدن ومنشآت المملكة التي خربتها الحرب العالمية الثانية.

لكن طبيعة هذا الوجود سرعان ما تغيرت مع الزمن، وذلك بتغير طبيعة الصناعة الفلامانية التي لم تعد في حاجة إلى يد عاملة كثيفة بعد عصرنتها، وإغلاق مناجم الفحم والصلب والولونية التي نضبت معيها بعد قرنين من الاستغلال المتواصل، فانتقل أغلب المسلمين إلى العاصمة بروكسل، خصوصاً بعد استفادتهم لعائلاتهم وتقدمهم في السن، وأعلنت الأجيال الناشئة الأكثر تعليماً والأعظم طموحاً، تدريجياً، عن رغبتها في الخروج من جلايب آبائهم. فضلاً عن تجربتهم في شارع برابند ذائع الصيت في بروكسل، فقد اقتحم المسلمون مجالات اقتصادية عديدة، لم يعتمدوا فيها على رأسمال موجود بشكل مسبق، بل فقط على مواهبهم الذاتية وما اكتسبوه من خبرات في المدارس، وفي شركات ومقاولات عملوا فيها لسنوات طويلة كموظفين أجراء. وعلى النحو المذكور في نشرة إلكترونية تابعة لجمعية الخريجين المسلمين من الجامعات والمعاهد البلجيكية، فإن الاقتصاديين الشباب من أصل مسلم، يمتلكون 323 شركة صفرى ومتوسطة في مقاطعة بروكسل وحدها، من بينها 120 في قطاع الاتصالات الحديثة (الكمبيوتر، الإلكترونيات، الاتصالات الهاتفية، الإنترنت)، و78 في قطاع الخدمات (النقل، التنظيف)، و113 في قطاع المطاعم والفنادق، و30 في بقية القطاعات.

وفضلاً عن هذه المقاولات والشركات الصفرى، فإن مسلمي بلجيكا، خاصة بروكسل، يمتلكون شبكة واسعة من محلات البقالة والجزارة والحلاقة، تقدم خدماتها لأبناء الأقلية المسلمة بالدرجة الأولى، لكنها تجد رواجاً كبيراً أيضاً لدى المواطنين البلجيكين الذين تستهويهم المأكولات والمواد الغذائية الإسلامية. وقد أصبح الوجود الاقتصادي الإسلامي جزءاً لا يتجزأ من مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العاصمة البلجيكية، بعد أن أصبح البلجيكون، على سبيل المثال، يسلمون مسبقاً بأن محلات الأكلات السريعة أو ما يعرف في بلجيكا بـ **سناك** (Snack)، يجب أن تكون مملوكة لأحد أبناء الأقلية المسلمة، وهو في الغالب إما من أصل تركي أو مغربي، كما لم يعد أحد من البلجيكين يفكر في فتح مقهى في حي ميدي وسط بروكسل، لأنه لن يكون قادراً على منافسة المقاهي المغربية، التي تقدم الشاي المنع والمسمن (نوع من أنواع الفطائر). غير أن كثيراً من الناشطين المسلمين في بلجيكا، لا يزالون يعتقدون أن البون الذي يفصل رقم معاملات المسلمين الاقتصادية مقارنة بأرقام أقليات دينية أخرى أقل عدداً، لا يزال شاسعاً جداً، وأن التضامن المطلوب بين أبناء الأقلية المسلمة لتقوية مواقعهم الاقتصادية والاجتماعية ما يزال ضعيفاً إن لم يكن منعدماً، ولكي يتحول الضعف إلى قوة حقيقية مستقبلاً فإن على مسلمي بلجيكا التسلح بمزيد من الشجاعة والتكافل.

نشاطهم يميز مظاهر الحياة الاقتصادية في العاصمة البلجيكية سناك بروكسل.. مغربي

المصير - خاص - إذا كنت في بروكسل وتبحث عن محل للوجبات الخفيفة أو كما يسميه البلجيكون سناك (Snack) فستجد غالباً أصحابه من المسلمين إما من القادمين من المغرب أو من تركيا. أما إذا فكرت في شراء ملابس فستجدها أيضاً عند المسلمين في شارع برابند، أكثر شوارع بروكسل حيوية، وسيطر عليه المسلمون الذين تم الاعتراف بدينهم من قبل الحكومة البلجيكية منذ أكثر من نصف قرن من دون أن يُحدث الأمر قدراً من الضجيج والصخب على غرار ما حدث في بلدان أوروبية أخرى، واستطاع مسلمو بلجيكا خلال العقود الماضية رسم خريطة لنفوذهم الاقتصادي في البلاد بجوار الأقليات الأخرى، ساعدهم في ذلك التركيبة الجغرافية والسياسة للدولة البلجيكية.

16.500 زائر يوميًا، يأتي 64% من خارج المقاطعة، من بينهم 80% من الدول الأوروبية المجاورة، وفي مقدمتها هولندا وفرنسا. ويعرف شارع برابند الفريد من نوعه على الصعيد الأوروبي لاحتوائه ما يقارب ثلاثمائة محل تجاري تباع منتجات وسلعا مستوردة غالبيتها من الدول العربية والإسلامية، بأنه دويلة إسلامية حقيقية داخل المجموعة الاقتصادية الأوروبية، وهي مجموعة مسيحية كما هو معروف، فاللغات المعتمدة في هذا الشارع هي لغات العالم الإسلامي (العربية، والتركية، والأوردية، والأمازيغية...)، والزبائن مسلمون من مختلف الأعراق والقوميات، والسلع مستوردة كما هو مشار سلفاً من الدول العربية والإسلامية.

وتهيمن على الشارع الإسلامي في بروكسل الشمالية، أجواء ثقافية وحضارية إسلامية، تذكر بتلك السائدة في أسواق القاهرة وإستانبول ودمشق وطهران وكراشي ولاهور وفاس وغيرها من المدن الإسلامية، والرواج الاقتصادي لا يقل عن مستوى الرواج السائد في الأسواق البلجيكية الأخرى. وبحسب شهادات بعض التجار المسلمين في شارع برابند فقد تمكن بعضهم من تطوير رأسماله إلى حد يفوق كل التقديرات، فيما تشير بعض المصادر غير الرسمية إلى أن رقم المعاملات الإجمالي في هذا الشارع قد يناهز مليار دولار، وهو رقم مقبول إذا ما قيس بعدد الزوار المعلن أعلاه (بمعدل 167 دولار للزائر الواحد).

التجارة في المقدمة
لقد كان وجود المسلمين في بلجيكا منذ منتصف القرن العشرين وجوداً عمالياً صرفاً، حيث استقدم غالبية أبناء الجيل الأول من المسلمين خلال عقود الستينيات والسبعينيات للعمل في مصانع فلاندر، ومناجم

حال الرأسمال الإسلامي، فالاعتبارات القومية عادة ما تتدخل حفاظاً على بقاء الاقتصاد تحت سيطرة مجموعة نافذة بعينها، تمتلك مصالح سياسية فاعلة. ويضرب بعض هؤلاء الناشطين مثلاً بالحضور الاقتصادي لإحدى الجماعات اليهودية الأرثوذكسية في أنترفين، التي يعود وجودها في المدينة إلى ما يزيد على أربعة قرون، وتسيطر بشكل شبه مطلق على أنواع من التجارة بعينها، كتجارة الماس والصرافة والاتصالات، وتقرض بطرق غير مرئية احتكارها للملكية الاقتصادية في

هذه المجالات الحيوية، وتمارس في ذلك قدراً كبيراً من التضامن الذي يمنع أي إمكانية للاختراق الداخلي، وهو ما دفع الأقليات الجديدة، ومن بينها الأقلية المسلمة، إلى البحث عن مجالات جديدة للاستثمار بدلا من الدخول في صراعات غير متكافئة.

شارع برابند
لقد وجد المسلمون في بروكسل مناخاً خصباً وملائماً لتطوير قدراتهم الاقتصادية وإطلاق العديد من مبادراتهم التجارية الطموحة، التي ارتبطت إلى حد كبير بطبيعة المدينة الجديدة، بعد اتخاذها عاصمة للاتحاد الأوروبي، كما حاولت استثمار هذه الطبيعة لنيل حصة من تجارة التوزيع على الصعيد الأوروبي التي ازدهرت في العاصمة البلجيكية في العقود الأخيرة بعد اتخاذ العديد من الشركات العالمية مكاتب تمثيل أوروبي فيها. ومن مظاهر هذا التوجه الاقتصادي، ظهور مجموعة من الشركات المملوكة للمسلمين التي تنشط في قطاع تجارة الجملة، ولم تكتف في نشاطها بشبكة المحلات المنتشرة في بلجيكا، بل تعدتها إلى المحلات التجارية المماثلة في هولندا وفرنسا وألمانيا والدول الأوروبية الأخرى المجاورة، ومن ذلك أن 85% من محلات البقالة الإسلامية في الدول ألفة الذكر، تتزود ببضائعها، جزئياً أو كلياً، من مؤسسات تجارة الجملة في العاصمة البلجيكية، على النحو المذكور في نشرة لجمعية المقاولين المسلمين الشباب في بلجيكا.

ويعد شارع برابند في Rue de Brabant الضاحية الشمالية لمدينة بروكسل، رمزاً ساطعاً للطبيعة الأوروبية لاقتصاد مسلمي العاصمة البلجيكية، فمن مجموع ما يقارب ستة ملايين زائر سنوياً، بحسب النشرة نفسها، أي ما يعادل

فحين قرر البلجيكون تعزيز الحكم اللامركزي في بلادهم أوائل التسعينيات من القرن العشرين وتقسيمها إلى ثلاث مقاطعات تتمتع بالاستقلال الذاتي، من بينها العاصمة بروكسل، كان الوجود الإسلامي الكثيف في بعض مدنها أحد العوامل التي لعبت دوراً في صياغة ملامح هذا التقسيم، خصوصاً من الناحية الاقتصادية، حيث يشكل المسلمون مصدر قوة وضعف في الوقت نفسه.

لقد انطلق التقسيم البلجيكي بالأساس، على قاعدة الصراع الفلاماني - الوالوني، أي الصراع بين الناطقين بالهولندية في مقاطعات الشمال أو ما يعرف اليوم بـ فلاندر، والناطقين بالفرنسية في مقاطعات الجنوب المسماة والونيا، لكن بروز العاصمة بروكسل الموجودة جغرافياً في فلاندر، والناطقة في غالبيتها السكانية بالفرنسية 80%، والمتعددة ثقافياً وأثنية، حيث يشكل المسلمون ربع ساكنيها جعل هذا التقسيم ينحى منحى الثلاثية بدل الثنائية، محولاً البلاد إلى فيدرالية مكونة من ثلاث دويلات عوض الدويلتين المفترضتين. وبالقدر الذي شكل الوجود الإسلامي، المتمثل فيما يزيد عن نصف مليون نسمة من مجموع عشرة ملايين بلجيكي طبقاً لإحصاءات رسمية عام 2002، عنصر تباعد بين الدويلتين فلاندر والوالونيا، حيث سعت كل منهما إلى التخلص من أكبر نسبة من هؤلاء العمال الفقراء القادمين في غالبيتهم من المغرب وتركيا، بقدر ما شكّل عنصر تميز وهوية خاصة، خصوصاً حركية اقتصادية واجتماعية، للعاصمة بروكسل ودويلتها الناشئة، فبروكسل خلافاً لفلاندر والوالونيا لم تؤسس على قاعدة قومية، ولم تعد منذ اتخاذها الاتحاد الأوروبي عاصمة له، عابئة بالأصول القومية أو الثقافية أو العرقية، ويعتقد أهلها بأن ديمومة ازدهارها مرتكزة بالأساس على مواصلتها دور الاستقطاب السياسي والاقتصادي والسياحي، الذي استمدت منه ذاتها ويستمد منه سكانها أرزاقهم.

الليبرالية الاقتصادية
وخلافاً للطابع القومي الذي يسيطر على الدورة الاقتصادية في مقاطعتي فلاندر والوالونيا، ومن منطلق مخاوف القوميين في المقاطعتين من فقدان الخصوصية الإثنية واللغوية والدينية، فإن اقتصاد بروكسل قد تبنى، منذ نشأة المقاطعة، نهجاً ليبرالياً خالصاً، يقوم على تشجيع المبادرة الفردية والمنافسة، وفتح السوق أمام الرأسمال بصرف النظر عن هويته، باعتبار أن هوية المقاطعة مستمدة أصلاً من التعددية. ويلاحظ الباحث أن كلا من أنترفين، عاصمة فلاندر ونامير، عاصمة والونيا، ليستا سوى جيتون اقتصاديين بمعنى الكلمة، تتحكم في اقتصادهما البرجوازية التقليدية، ولا يزيد إجمالي الاستثمار الخارجي فيهما عن 7% بحسب الإحصائيات الرسمية، من دخلهما الإجمالي العام، بينما تصل النسبة ذاتها في بروكسل إلى 31% كما تشير إلى ذلك مصادر حكومتها المحلية. ويؤكد الناشطون الاقتصاديون من أصل مسلم في بلجيكا أن المبادرة في أسواق فلاندر والوالونيا مغامرة حقيقية ليست مضمونة العواقب، خصوصاً على الرأسمال الناشئ الذي لم يشهد عوده بعد، كما هو

هولندا



السيد رعوف مسعد

أقول له، اقرأ الصحف العربية الصادرة أخيراً وتعلم، فالحاكم المصرية أصدرت احكاماً جديدة تسمح للمصريين الذين كانوا مسيحيين وأسلموا ويرغبون مرة أخرى في ترك الإسلام الحق، إذا رغبوا، في العودة مرة أخرى إلى المسيحية. أقول للسيد جامي، جمعيتك فاقدة المعنى والهدف خاصة هنا في هولندا وأوروبا بشكل عام، فلا أحد يهتم بمسلم تحول إلى المسيحية أو مسيحي يتحول إلى الإسلام، اللهم الا اذا اراد ان يحصل على مكسب سياسي او شهرة ضيقة. أما بالنسبة للسيد فيلدرز فيقول الكاتب المصري، نحن العرب المسيحيين نرفض بشدة أية اهانة للمسلمين والإسلام، كما ندين أيضاً بالشدة نفسها أي اعتداء يحدث من مسلمين على غير مسلمين بسبب دينهم أو أي ممارسات أخرى. فأنا وغيري من المسيحيين العرب نعد القرآن جزءاً أساسياً وهاماً من تراثنا الثقافي والحضاري ونحترمه ونقرأه، وهل نسينا أن كتاب حكماء صهيون أصدره المسيحيون الغربيين الذين كتبوا فيه بان كهنة اليهود يخطفون أطفال المسيحيين ويذبحونهم ويخلطون دمائهم بالقرابين؟

ويجمع مسعد ختاماً بين الرجلين في تذكيرهما بأن الغالبية المسلمة في البلاد الإسلامية لم تفكر في تحريم تداول الكتاب المقدس المسيحي، ويرجوها بأن لا يبحثا عن الأضواء بواسطة إسدال الظلام على الآخرين!.

لم تعد ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب قضية تهم الأقليات المسلمة، بل تحولت إلى قضية دولية بامتياز، يتجاوز مدى تأثيرها السلبى حدود المجتمعات التي عرفتها، إلى العلاقات الدولية العامة، وبالتحديد إلى علاقة العالمين الإسلامي والغربي، وهو ما دفع بمنظمة المؤتمر الإسلامي التي تضم في عضويتها كافة الدول الإسلامية، إلى وضع تقرير حول الظاهرة، وتضمن البيان الختامي لآخر قمة للدول أعضاء المنظمة، التي انعقدت في العاصمة السنغالية دكار، فقرة تدعو الدول الغربية إلى التصدي لتجارة التخويف من الإسلام.

وفي هذا الإطار يقول الأمين العام للمنظمة البرفسور أكمل الدين إحسان أوغلو، أنه منذ عام 2005 كانت هناك وعود من الدول الغربية من أجل إيقاف هذه الحملة غير المفهومة، لكن للأسف الشديد لم يتم الالتزام بذلك، ويضيف أوغلو، نحن نحترم حرية التعبير، لكن استغلال هذه الحرية لاذراء الأديان والإصرار على الإهانة أمر غير مفهوم، إنه تصرف غير سوي وتطرف فكري، ويجب علينا في العالمين الغربي والإسلامي ألا نضع ضحايا المتطرفين في الجانبين.

يذكر أنه للمرة الأولى في تاريخ المنظمة يستحدث مرصد لتابعة ظاهرة كراهية الإسلام، وسيقدم تقريره للمرة الأولى إلى القمة التي ستبدأ أعمالها قريباً، ويتابع المرصد كل ما يصدر ضد الإسلام حول العالم، لكن حتى الآن لا يعرف ما إذا كانت تقارير هذا المرصد ستتحول إلى مواقف أمام القمة، بحيث تصدر المنظمة عقوبات اقتصادية على من يرى المرصد أنه تجاوز الحدود في نقده للإسلام.

